وليس أغنى من الشعر الجاهلى بهذه «المذاهب الأخلاقية» معروضة فى صدر الشخصيات الحية ، يتسع فيها المجال لتطور كل شخصية على حسب اختلاف السن والمزاج وتجارب الأيام .... ولكنها – على هذا الاختلاف – تستمد القيم من وحى المجتمع العربى فى نطاقه ، ولا تخرج منه ولا تشعر بالحرج أو بالحجر من أجل ذلك . لأنها هى لا تريد أن تخرج من ذلك النطاق وتحس بأنها تفرضه كما يُفرض عليها .

وإذا سألنا عن أثر الشخصية وأثر المجتمع أيها أظهر وأقدر فى خلق هذه القيم الحية فقد يفضى بنا البحث النظرى إلى سؤال كالسؤال عن البيضة والدجاجة ، ولكنّ الأمثلة الواقعية هنا تعطينا الجواب محسوسًا مفهومًا لا محل بعده للبحوث النظرية .

إن استقلال الشخصية قد بلغ غايته القصوى فى رجل ثائر على المجتمع ، متمرد على قومه ، مفاخر بهذه الثورة وهذا التمرد ، وهو عروة بن الورد الملقب بعروة الصعاليك لأنه كان يقود صعاليك القوم ليجلب لهم الميرة ولوازم المعيشة .

ولكنه لم يكن يثور ويتمرد إلا ليحقق القيم الاجتماعية التى تَعارف عليها الناس من عشيرته ، فيخرج مغيرا مجازفا ليغنم ويطعم «المريض والكبير والضعيف» كما جاء فى سيرته ، ويرد على من يفاخره بالصحة والفراهة قائلا إنه يفرق جسمه فى جسوم كثيرة ، أى أنه يعطى من طعامه ما يقوت الأجسام ، وأن أناءه الواحد آنية للكثيرين ولكنّ مفاخريه لهم آنية كثيرة كأنها أناء واحد .